سورة البلد

مكية، وآياتها عشرون
[نزلت بعد قٓ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾

أقسم الله سبحانه بالبلد الحرام وما بعده على أن الإنسان خلق مغمورًا في مكابدة المشاق والشدائد؛ واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ يعني: ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم. عن شرحبيل: يحرّمون أن يقتلوا بها صيدًا ويعضدوا بها شجرة، ويستحلون إخراجك وقتلك وفيه تثبيت من رسول الله ﷺ، وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته، أو سلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالقسم ببلده، على أنّ الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد؛ واعترض بأن وعده فتح مكة تتميمًا للتسلية والتنفيس عنه. فقال: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، يعني: وأنت حلّ به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر؛ وذلك أنّ الله فتح عليه مكة وأحلّها له، وما فتحت على أحد قبله ولا أحلّت له فأحلّ ما شاء وحرّم ما شاء. قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة. ومقيس بن صبابة وغيرهما، وحرّم دار أبي سفيان (١٧٥٢)، ثم قال: «إنّ الله حرم مكة يوم خلق السمٰوات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلاّ ساعة من نهار، فلا يعضد شجرها، ولا يختلٰ

١٧٥٢ ـ تقدم وقال الحافظ في تخريج الكشاف: تقدم. وقتل ابن خطل: متفق عليه، وقتل مقيس بن صبابة عند أبي داود والنسائي من رواية مصعب بن سعد عن أبيه وقتل غيرهما تقدم أيضًا. ومنهم الحويرث بن نفيل. رواه الواقدي في المغازي. والمراد بقوله: «حرم دار أبي سفيان قوله ﷺ يوم الفتح: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وقد رواه إسحاق وغيره.

خلاها، ولا ينفّر صيدها ولا تحل لقطتها إلاّ لمنشد. فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لقيوننا[1] وقبورنا وبيوتنا؛ فقال ﷺ: «إلاّ الإذخر» (١٧٥٣).

فإن قلت: أين نظير قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾ في معنى الاستقبال؟

قلت: قوله عزّ وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠] ومثله واسع في كلام العباد، تقول لمن تعده الإكرام والحباء: أنت مكرم محبو، وهو في كلام الله أوسع؛ لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة. وكفاك دليلاً قاطعًا على أنه للاستقبال، وأن تفسيره بالحال محال: أن السورة بالاتفاق مكية، وأين الهجرة عن وقت نزولها، فما بال الفتح؟ فإن قلت: ما المراد بـ ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾؟ قلت: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن ولده، أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وحرم أبيه إبراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل، وبمن ولده وبه. فإن قلت: لم نكر؟ قلت: للإبهام المستقل بالمدح والتعجب. فإن قلت: هلا قيل ومن ولد؟ قلت: فيه ما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي: بأي شيء وضعت، يعني موضوعًا عجيب الشأن. وقيل: هما آدم وولده. وقيل: كل والد وولد.

والكبد: أصله من قولك: كبد الرجل كبدًا، فهو أكبد: إذا وجعت كبده وانتفخت، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة؛ ومنه اشتقت المكابدة، كما قيل: كبته بمعنىٰ أهلكه. وأصله: كبده، إذا أصاب كبده؛ قال لبيد [من المنسرح]:

١٧٥٣ ـ أخرجه البخاري (٤٦، ٤٧): كتاب جزاء الصيد: باب لا يحل القتل بمكة، حديث (١٨٣٤)، ومسلم (٢/ ٩٨٦، ٩٨٧): كتاب الحج: باب تحريم مكة وصيدها وحلالها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد، على الدوام، حديث (٤٤٥/ ١٣٥٣).

وأبو داود (٢/ ٦) كتاب الجهاد: باب في الهجرة هل انقطعت حديث (٢٤٨٠) والنسائي (٧/ ١٤٦) كتاب الجهاد: باب ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة والترمذي (٤/ ١٢٦) كتاب السير: باب ما جاء في الهجرة حديث (١٥٩٠) والدارمي (٢/ ٢٣٩) كتاب السير: باب لا هجرة بعد الفتح وعبد الرزاق (٥/ ٣٠٩) رقم (٩٧١٣) وابن الجارود (١٠٣٠) وابن حبان (٤٨٤٥ ـ الإحسان) والبيهقي (٥/ ١٩٥) والطبراني في «الكبير» رقم (١٠٩٤٤) والبغوي في شرح السنة (٥/ ٥٢٠ ـ بتحقيقنا) من طريق منصور عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ ـ يوم الفتح فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والله فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده لا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ويختلي خلاها» فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال: «إلا الإذخر»، وهذا لفظ البخاري.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة وله طرق وألفاظ. انتهى.

---

(١) قوله «فإنه لقيوننا» القيون جمع قين، وهو الحداد كذا في «الصحاح» انتهى

يَـا عَـيْـنُ هَـلاَّ بَـكَـيْـتِ أَرْبَـدَ إِذْ قُـمْـنَـا وَقَـامَ الْـخُـصُـومُ فِـي كَـبَـدِ[1]

أي: في شدة الأمر وصعوبة الخطب.

والضمير في ﴿أَيَحْسَبُ﴾ لبعض صناديد قريش الذي كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد

والمعنى: أيظن هذا الصنديد القوي في قومه المتضعف للمؤمنين: أن لن تقوم قيامة، ولن يقدر على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه، ثم ذكر ما يقوله في ذلك اليوم، وأنه يقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم، ويدعونها معالي ومفاخر ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾ حين كان ينفق ما ينفق رئاء الناس وافتخارًا بينهم، يعني: أن الله كان يراه وكان عليه رقيبًا. ويجوز أن يكون الضمير للإنسان، على أن يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الشريف، ومن شرفه أنك حلّ به مما يقترفه أهله من المآثم متحرج بريء، فهو حقيق بأن أعظمه بقسمي به ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ أي: في مرض: وهو مرض القلب وفساد الباطن، يريد: الذين علم الله منهم حين خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات. وقيل: الذي يحسب أن لن يقدر عليه أحد: هو أبو الأشد، وكان قويًا يبسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فلا ينزع إلاّ قطعًا ويبقى موضع قدميه. وقيل: الوليد بن المغيرة «لبدا» قرئ بالضم والكسر: جمع لبدة ولبدة، وهو ما تلبد يريد الكثرة: وقرئ: «لبدًا» بضمتين: جمع لبود. ولبدا: بالتشديد جمع لابد.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ يبصر بهما المرئيات ﴿وَلِسَانًا﴾ يترجم به عن ضمائره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي: طريقي الخير والشر. وقيل: الثديين ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ يعني: فلم يشكر تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة: من فك الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين، ثم

---

(١) للبيد يرثي أخاه أربد. وكبد كبدًا كتعب: وجعت كبده وانتفخت، فاتسع فيه حتى صار كتعب في المعنى أيضًا. يقول: يا عين هلا بكيت أخي وقت قيامنا للحرب وقيام الخصوم معنا فيه. والعاملان تنازعا قوله (في كبد) ونزل عينه منزلة من يعقل، فخاطبها، وهلا: حرف تحضيض.
ينظر: ديوانه ص ١٦٠، وتذكرة النحاة ص ١١٨، والخصائص ٣/٣١٨، ولسان العرب (كبد).

بالإيمان الذي هو أصل كل طاعة، وأساس كل خير؛ بل غمط النعم[1] وكفر بالمنعم. والمعنى: أن الإنفاق على هذا الوجه هو الإنفاق المرضي النافع عند الله، لا أن يهلك مالاً لبدًا في الرياء والفخار، فيكون مثله ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ . . .﴾ [آل عمران: ١١٧] الآية. فإن قلت: قلما تقع «لا» الداخلة على الماضي إلاّ مكرره؛ ونحو قوله: [الرجز]

فأيُّ أمرٍ سيِّئٍ لا فَعَلَهْ[2]

لا يكاد يقع، فما لها لم تكرر في الكلام الأفصح؟ قلت: هي متكرّرة في المعنى؛ لأن معنى ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ فلا فكّ رقبة، ولا أطعم مسكينًا؛ ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك[3].

وقال الزجاج قوله: (ثم كان من الذين آمنوا) يدل على معنى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾، ولا آمن. والاقتحام: الدخول والمجاوزة بشدّة ومشقة. والقحمة: الشدة، وجعل الصالحة: عقبة، وعملها: اقتحامًا لها؛ لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس. وعن الحسن: عقبة والله شديدة. مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدّوه الشيطان. وفكّ الرقبة: تخليصها من رق أو غيره. وفي الحديث: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: دلني على عمل يدخلني الجنة. فقال: «تعتق النسمة وتفك الرقبة. قال: أو ليسا سواء؟ قال: لا، إعتاقها أن تنفرد بعتقها. وفكها: أن تعين في تخليصها» (١٧٥٤). من قود أو غرم. والعتق

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

١٧٥٤ ـ أخرجه ابن حبان (١٢٠٩ ـ موارد) والطيالسي (٢/ ٣٠ ـ منحة) رقم (٢٠٠٩) وأحمد (٤/ ٢٩٩) والحاكم (٢/ ٢١٧) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣) من حديث البراء بن عازب وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٤٣): رواه أحمد ورجاله ثقات.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه ابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في الشُعب، والثعلبي وابن مردويه والواحدي من رواية عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب وليس عند أحد منهم قوله «من قود أو غرم» وكأنه من =

---

(١) قوله: «بل غمط النعم» أي: استحقرها. (ع)
(٢) لشهاب بن العيف في خزانة الأدب ١٠/ ٨٩، ٩٠، وتاج العروس (زنأ)، ولابن العفيف العبدي أو عبد المسيح بن عسلة في شرح شواهد المغني ٢/ ٦٢٤، وللعفيف العبدي في لسان العرب (زنأ)، والتنبيه والإيضاح ١/ ١٩، ٢٨٦، ولجرير في لسان العرب (شدخ)، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (زنا)، والإنصاف ص ٧٧، والجنى الداني ص ٢٩٧، ٢٩٨، وشرح المفصّل ١/ ١٠٩، ٨/ ١٠٨، ومغني اللبيب ١/ ٢٤٣، وتهذيب اللغة ١٣/ ٢٦٠، والمخصّص ١٤/ ٣، ١٦/ ٢٣، وتاج العروس (زنا).
(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يتم له هذا إلا على قراءة «فك» فعلاً ماضيًا. انتهى. الدر المصون.

والصدقة: من أفاضل الأعمال. وعن أبي حنيفة رضي الله عنه: أنّ العتق أفضل من الصدقة. وعند صاحبيه: الصدقة أفضل والآية أول على قول أبي حنيفة لتقديم العتق على الصدقة وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة: أيضعه في ذي قرابة، أو يعتق رقبة؟ قال: الرقبة أفضل، لأن النبي ﷺ قال: «من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضوًا منه من النار» (١٧٥٥). قرئ: فك رقبة، أو إطعام، على: هي فك رقبة، أو إطعام. وقرئ: فك رقبة، أو أطعم، على الإبدال من اقتحم العقبة. وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ اعتراض، ومعناه: أنك لم تدرِ كُنْهَ صعوبتها على النفس وكنه ثوابها عند الله. والمسغبة، والمقربة، والمتربة: مفعلات من سغب: إذا جاع. وقرب في النسب، يقال: فلان ذو قرابتي. وذو مقربتي. وترب: إذا افتقر، ومعناه. التصق بالتراب. وأما أترب فاستغنى، أي: صار ذا مال كالتراب في الكثرة، كما قيل: أثري. وعن النبي ﷺ في قوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ الذي مأواه المزابل (١٧٥٦)، ووصف اليوم بذي مسغبة نحو ما يقول النحويون في قولهم: هم ناصب: ذو نصب. وقرأ الحسن: ذا مسغبة، نصبه بإطعام. ومعناه: أو إطعام في يوم من الأيام ذا مسغبة.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ جاء بثم لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت؛ لأن الإيمان هو السابق المقدّم على غيره، ولا يثبت عمل صالح إلاّ به. والمرحمة: الرحمة، أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على الإيمان والثبات عليه. أو بالصبر عن المعاصي وعلى الطاعات والمحن التي يبتلى بها المؤمن، وبأن يكونوا

= كلام الزمخشري انتهى.

١٧٥٥ ـ قال الزيلعي (٤/ ٢١٤) غريب وروى الحاكم في المستدرك (٢/ ٢١٢) من حديث عطية بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «من أعتق رقبة فك الله بكل عضو من أعضائه عضوًا من النار» وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال الحافظ: أخرجه الحاكم من حديث عقبة بن عامر بلفظ «من أعتق رقبة». انتهى.

١٧٥٦ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٤/ ٢١٤): «غريب أيضا» ا. هـ.

ورواه الحاكم (٢/ ٥٢٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل «أو مسكينًا ذا متربة» قال التَّرِبُ الذي لا يقيه من التراب شيء» وسكت عنه هو والذهبي.

وعزاه الحافظ والزيلعي لابن مردويه من حديث مجاهد عن ابن عمر مرفوعًا بلفظ: «الذي مأواه المزابل» ا. هـ.

قال الحافظ: أخرجه ابن مردويه من رواية مجاهد عن عبد الله بن عمر بهذا. وعند الحاكم عن ابن عباس: قال «هو الذي لا يقيه من التراب شيء» موقوف. انتهى.

متراحمين متعاطفين. أو بما يؤدي إلى رحمة الله. الميمنة والمشأمة: اليمين والشمال. أو اليمن والشؤم، أي: الميامين على أنفسهم والمشائيم عليهن. قرئ: موصدة، بالواو والهمزة، من وصدت الباب وآصدته: إذا أطبقته وأغلقته. وعن أبي بكر بن عياش: لنا إمام يهمز موصدة؛ فأشتهي أن أسدّ أذني إذا سمعته.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله الأمان من غضبه يوم القيامة» (١٧٥٧).

١٧٥٧ ـ تقدم برقم (٣٤٦): قال الحافظ: أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبي بن كعب. انتهى.

obeikandl.com